

مخطوطات أدب الرحلة بمنطقة توات

Travel literature manuscripts in the Touat region

وهيبة وهيب

المركز الجامعي مغنية - الجزائر

wahiba_wahib@yahoo.fr

فاطمة صغير

المركز الجامعي مغنية - الجزائر

Diden.bb@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2022/01/31

تاريخ القبول: 2021/07/05

تاريخ الإرسال: 2021/05/10

الملخص:

المخطوط فنٌ وعلمٌ، والجنوب الجزائريّ يزخر بالزوايا التي تضمّ تراثاً هائلاً من المخطوطات في شتى العلوم والمعارف، كما أنّ النّصيب الأوفر منها يوجد بمنطقة توات العريقة تاريخياً وحضارياً. والمخطوط الجزائريّ لا تقتصر كنوزه على المعارف الدّينية واللّغويّة، وإنّما نجده يعرض رحلات أدبيّة خطّها أصحابها في مراحل متعاقبة.

الكلمات المفتاحية:

أدب الرحلة - المخطوطات - منطقة توات - خزائن المخطوطات - الرّحالة.

Abstract:

The manuscript is an art and a science, and the southern Algerian is full of nooksthatcontain a greatvariety of manuscripts in various sciences and knowledges. But the largershare of it (the variety of manuscripts) isfound in Tuat, ahistorically and civilizationalancient area.

The treasure of the Algerian manuscriptis not limited in itsreligious and linguisticsknowledge, but itpresents a set of literary trips written in successive stages or stages.

Keywords:

Literature Trip – manuscripts– Tuat area – Manuscriptsafes - traveler.

1. مقدمة:

أرض الجزائر مساحة شاسعة، مترامية الأطراف، تمثل أمام عين المسافر إليها لوحةً فنيةً متعددة الأشكال، وباهية الألوان، فيرجع عندئذ بعقله وقلبه ليسبح ملكاً تفرد في صنعه عن بقية الملوك، إنه الله الذي حبا بلاد المغرب الأوسط بنعم كثيرة، بعضها مدفون في أعماق رحمها، والآخر يبسط فوق ثراها آية للناظرين.

وإذا كانت الجبال الشامخات، والروابي الخضراء والسواحل الممتدة هي البطاقة التعريفية لمنطقة التل الجزائري، فإن صحراءها عنوان هويتها، ورمز شخصيتها الضاربة بعمق في تاريخ بلاد المغرب العربي.

ولأن صحراء الجزائر بساط حيك بمهارة، عكست حلق صانع تنزهه عن النقص والتقصير، فإنها قد تجلت في نهاية الأمر فسيفاء متراسة عناصرها الرمال الذهبية، والكتبان الصافية والنخيل الباسقة والواحات الحية، إضافة إلى رجالها الزرق الذين تحكي قدامتهم ونظراتهم عراقة الأرض وشموخها.

لقد أسالت صحراء بلادي الكثير من الحبر، وألهمت الشعراء وغيرهم فتحدثوا عن أجمل صحراء في العالم، ومن الذين هاموا بحبها الكاتب عمر الأنصاري الذي تحدث عن الطوارق في دراسة عنوانها "الرجال الزرق الأسطورة والواقع"، وكتب جين لويس سنة 1959 "الرؤوس الملتهبة"، وكذلك أنشأ فيليب ديول كتابه « أجمل صحراء العالم »

« Le plus beau désert du monde » ، وإدموند دبير نوس سنة 1984 "الطوارق دعاة محاربون"، وأيضاً هنري لوت، الذي كتب عام 1961 « ملحمة التينيري » « l'épopée de »¹ tenere ».

وهكذا استقطبت صحراؤنا الباحثين فتغزلت أقلامهم بجمالها الساحر، وبقدر الإعجاب بها كانت الدهشة كبيرة وعظيمة، حين اهتدى حبر الأقلام إلى أن هذه الصحراء تعاقبت عليها أجيال شيدت حضارة ساكنيها، ولأجل معاينة شواهد الحضارة بها، والارتشاف من كأس التاريخ والأصالة، غدت جنة ساحرة إليها تهوي أفئدة السائح والزوار من مختلف الأصقاع من أجل الوقوف على قاعدتها البركانية الخالية من الصخور الرسوبية والمتمثلة في

الهفار الشّامل، وملامسة قممها المتاخمة للسّماء والاحتراق طواعية بخيوط شمسها الذّهبيّة، وتكحيل العين بمشهد الغروب الأخاذ.

ولا يجب الاعتقاد أنّ كنوز الصّحراء الجزائريّة تقتصر على المناظر الطّبيعية الخلّابة، أو تتوقّف على الآثار المتمثّلة أساساً في الصّخور العملاقة، والقصور العتيقة والمغارات الغائرة والقبب المترصّنة، وإنّما تشمل كذلك تلك النّفائس من الكتابات المتّصلة بمختلف العلوم والمعارف كعلوم الشّريعة من فقه وتفسيرٍ وأحاديث، بالإضافة إلى علوم اللّغة كالنحو والصّرف والبلاغة والقراءات في شكل مخطوطاتٍ اكتنزت عليها الكثير من الخزائن والزّوايا المنتشرة عبر العديد من الأقاليم الصّحراويّة، مثل إقليم الطّوارق وإقليم الأرواد وإقليم توات موضوع حديثنا في هذا المقال.

وقبل الحديث عن مخطوطات إقليم توات لا بدّ من تقديم لمحةٍ عن المخطوط بشكلٍ عام.

2. تعريف المخطوط وأهمّيته:

إنّ كلمة "مخطوط" مأخوذة من المادّة اللّغويّة "خطّ"، ويبدو أنّ أوّل إشارةٍ إليها في معاجم العربيّة، ترجع إلى معجم أساس البلاغة للزمخشري (538هـ) الذي جاء فيه: خطّ الكتاب وكتاب مخطوط²، كما وردت الكلمة أيضاً في معجم تاج العروس للزبيدي (1205هـ)، حيث قال في المادّة نفسها: كتابٌ مخطوطٌ مكتوبٌ فيه³.

وبالرجوع إلى مثل هذه الدّلالات اللّغويّة، نصل إلى الدّلالة الاصطلاحية للفظّة، وهي أنّ المخطوط كتابٌ كتُب بخطّ اليد من قبل مؤلّفٍ قديم، علماً أنّ اللفظة لم يجر استعمالها على ألسنة القدماء قبل عام 1594 م وإنّما أشاروا إلى الكتابات المخطوطة باليد باسم كتاب أو نسخة أو جزء.

ويبدو أنّ مثل هذا الاستخدام كان جارياً عند العرب كذلك بدليل قول ابن النّديم "وقرأت بخطّ أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في كتاب الوزراء"⁴.

وإذا كان الباحثون قد اختلفوا فيما بينهم بشأن استخدام القدامى لكلمة مخطوط، فإنّ الاتّفاق بينهم حاصل فيما يخصّ حقيقة المخطوط، إذ يجمعون على أنّ المراد به: تلك النّصوص الهامّة والقيّمة للفكر الإنساني من حضاراتٍ مختلفةٍ ومتعدّدة، وفي شتّى صنوف العلم وألوان المعرفة.

وما من شك في أنَّ العرب اشتهروا بهذا اللون من الكتابة، وعُرفوا به، وخير دليل على ذلك أنَّ عدداً من المخطوطات العربيَّة موزَّعة عبر العالم، وقد قدَّرها العلماء بمليون أو أكثر بشتى اللغات، ممَّا يعني أنَّهم خلفوا فيه تركَّةً معتبرةً وهائلةً، غدت تمثِّل أضخم تراثٍ عرفته الإنسانيَّة⁵.

والحقيقة أنَّ المصادر تشير إلى جملةٍ من العوامل ساعدت العرب على أن يكون إنتاجهم في ميدان المخطوطات ضخماً، ولعلَّ أقواها:

أ. العامل الديني: أدَّى الدين دوراً هاماً انطلاقاً من حثِّ القرآن الكريم على العلم والتَّعلُّم كما مدح فيه الله عزَّ وجلَّ العلماء ورفع درجاتهم.

ب. النسخة: ساهمت النسخة بشكلٍ كبيرٍ في نشر العلم حيث ظهرت بكثرةٍ في مراكز العلم وانتشارها، وظهور الصنَّاعة ومهنة الوراقة.

ت. الرِّحلات: ساعدت الرِّحلات على انتشار العلم من جهة، والاطِّلاع على معارف الأمم، ومن ثَمَّ العمل على نقلها والكتابة فيها.

فلقد أدرك العرب منذ القديم أهمية المخطوط وقيمتها، واعتنوا بأدوات كتابته وصنَّاعته، وحرصوا على معيار الجودة فيها خاصَّةً الحبر والمحبرة والمسطرة والبردي والرقَّ والورق، وليس هذا فحسب وإنَّما اهتمَّوا كذلك بزخرفته؛ إذ تفنَّوا في إنشائه بانتقائهم للزخارف الرَّائعة، ممَّا يوحي بعمق اعتزازهم بانتمائهم إلى الحضارة العربيَّة، وتقديسهم للعلم واحترامهم للكتاب.

واستمرَّ الحال في العصر الحديث حيث نجد الباحثين والدارسين يتسابقون في الوصول إليه بهدف إخراج الدُّرر المكنونة فيه، وإعداد الدِّراسات بشأنه، تارةً باعتماد التَّحقيق وتارةً أخرى بإلقاء الضَّوء على العلوم التي يتضمَّنُها.

وهكذا لم يعد الشك قائماً في كون المخطوط يمثل تراث الأمة، لذلك صارت الأبحاث المتصلة به من أهم الدراسات التي تعين على معرفة التاريخ الثقافي والإنتاج الفكري والعلمي لأمة ما. يقول في هذا الشأن أحد المتخصصين في المخطوط وهو الأستاذ مشهد جمال الدين "يمدنا المخطوط بمعلومات جديدة عن المجتمع الذي نشأ فيه، فلهذا أسس الآن علم المخطوطات المسمى الكوديكولوجيا لبحث عن حضارة مجتمع وتاريخه الثقافي والعلمي"⁶.

1.2 المخطوط الجزائري:

الجزائر كباقي الأمم، أنجز علماءها الكثير من المخطوطات بعضها بخطوط مؤلفيها « Aulographes » وبعضها الآخر منقولة عن نسخة مؤلف « Apographe » علماً أن المخطوط الجزائري، تتجلى فيه عدة معارف وفنون وعلوم منها ما يتصل بعلوم الشريعة من تصوف ومعاملات ومواريث وفقه وتفسير وعلوم الحديث، ومنها ما يخص علوم العربية من نحو وإعراب وبلاغة وعروض.

والجدير بالذكر أن المخطوطات الجزائرية متواجدة بالجزائر، ومنها ما يوجد خارجها بمكتبات اسطنبول بتركيا مثلاً⁷.

أمّا التي بالجزائر فإن أكثرها موجود بالصحراء وتحتضنه مختلف الزوايا والخزائن بالهقار ومثليي والأزواد وتوات.

وتشير العديد من المصادر إلى أن هذه الأقاليم من صحراء الجزائر، تتوفر على تراث علمي زاخر، معظمه في المخطوطات المتنوعة التي ظلت تحتفظ بها أسر توارثت العلم أبا عن جد كعائلة ابن مالك بقصر السّاهل، وعائلة الكنتية في زاوية بونعامة، أو ترجع إلى شيوخ الزوايا ورثوها أو جمعوها بواسطة الاقتناء، وهذه المخطوطات متفاوتة في عددها ومختلفة في عناوينها⁸.

والملاحظ أنّ المخطوط يتمتّع بالقداسة في أقاليم الصحراء الجزائرية لأنّه وثيقة تاريخية موثوقة شاهدة على مؤلفها وزمن تأليفها والعصر الذي وُجدت فيه، إضافة إلى كونه مصدراً للتاريخ لعصرٍ معيّن، يبين جهود العلماء في ذلك العصر، وهو إلى جانب ذلك إرث حضاريّ يعكس ثراء حضارة أمةٍ في زمنٍ معيّن، كما يعبر عن مدى رسوخ قدم علمائها في مختلف الفنون والعلوم، وبذلك يصير المخطوط أحد العوامل التي تسهم في الحفاظ على الهوية الثقافية والحضارية للأمة، ولهذا راح الاستعمار الفرنسي يعمل على قطع الصلة بين الشعب الجزائري وتراثه عن طريق حرق المخطوطات التي لها علاقة بالعربية والفكر الإسلامي.

ولهذه الأهمية التي يكتسبها المخطوط، أولى علماء الصحراء الجزائرية في مختلف الأقاليم، عنايتهم به، فراحوا يجمعونه في مراكز خاصة باعتباره يشكل رصيذاً علمياً هاماً يُظهر مراحل التطور في المجتمع الصحراوي، خلال مراحل نشأته وتطوره. كما حرص أسلافنا داخل ربوع صحرائنا الجزائرية على تزويد خزائهم بمجموعات هائلة من المخطوطات في مختلف الفنون، خاصة بعد قدوم العلماء المشتغلين بالعلم، وربما هاجر بعضهم إلى جهات مختلفة لطلب العلم وأداء فريضة الحج، فتكوّن لديهم رصيد ثقافيّ وحضاريّ تجسّد في مكنونات الخزائن اللغوية والأدبية والاجتماعية والعلمية⁹. ولأنّ مثل هؤلاء المتنقلين، صوروا أسفارهم وتحدّثوا عن الأماكن التي قصدوها في كتاباتهم، تشكّل نوع آخر من المخطوط الجزائريّ تمثل في مخطوطات أدب الرحلة التي تتوفّر بكثرة داخل إقليم توات.

3- مخطوطات أدب الرّحلة بإقليم توات:

قبل الحديث عن مخطوطات أدب الرّحلة داخل إقليم توات، يجدر بنا تقديم لمحة عن هذا الفنّ الأدبي الذي يشكّل حيّزا هامّا في أدبنا العربي، وهذا منذ القديم، فمتلما عرف العرب الرّحلة، كذلك عرفوا التّأليف في أدب الرّحلة.

وللعلم فإنّ مصطلح "أدب الرحلة" يُطلق على تلك الآثار والأعمال الأدبيّة التي يجبرّها الرّحالة، مصوّرين فيها المناطق التي جابوها والشّعوب التي رأوها، كما يُراد بالتّسمية ذلك اللون الأدبيّ ذي الطّابع القصصي والذي يشكّل معينا للمؤرّخ ودارس الأدب، وعالم الجغرافيا والاجتماع، والأكثر من هذا يمثل فنّ الرّحلة ضرباً من السّيرة الذاتيّة لأنّه وصف لكلّ ما انطبع في ذهن الرّحالة بشأن الأقطار وساكنيها، يتأزّر في ذلك الواقع والخيال وأسلوب القصّ والحقائق العلميّة المتّصلة بالتّاريخ والجغرافيا وعلمي الاجتماع والنفس¹⁰. وتأكيداً لحقيقة هذا النوع من الإبداع يقول مجدي وهبة وكامل المهندس "أدب الرّحالات هو مجموع الآثار الأدبيّة التي تتناول انطباعات المؤلّف عن رحلاته في بلادٍ مختلفة، وقد يتعرّض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطّبيعيّة التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلةً مرحلةً أو يجمع بين كلّ هذا في آن واحد"¹¹.

وللإشارة فإنّ للجزائر حضوراً في هذا اللون الأدبيّ الذي رفع بنيانه وأقام دعائمه رّحالوها قديماً وحديثاً، ولعلّ أشهرهم أبوراس النّاصر الجزائريّ، وابن قنفذ، والورثيلاني، والونشريسي، وابن حمادوش، إضافة إلى توفيق المدني وأبي القاسم سعد الله وغيرهم من الرّحالة الذين تركوا لنا أعمالاً راقيةً في هذا الفنّ الذي شهد عناية واهتمام علماء منطقة توات الذين خلّفوا وراءهم كتابات هائلة، تحدّثوا فيها عن تنقّلاتهم داخل توات وخارجها، فوضعوا الأماكن وذكروا ما يميّزوها من عادات وأخلاق وعلوم ومعارف.

وقبل أن نشير إلى هذه المخطوطات يجدر بنا التعريف بهذه المنطقة العريقة.

1.3 أصل تسمية توات:

اختلف الدارسون والباحثون في أصل تسمية منطقة توات بهذا الاسم. فقد ذكر الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التَّمَنِيَّيُّ أَنَّ أصل التَّسْمِيَةِ يعود إلى عهد الموحَّدين؛ إذ يحكي عن بعض القدماء أَنَّ أهل الصَّحراء لَمَّا طلبهم المهدي ملك الموحَّدين بالمغارم استضعفوا وقالوا لم يكن بأرضنا ذهب ولا فضة فأمر عامله بأن يقبض في المغارم الرُّطب والعنب وسائر الثَّمار والكروم، ففعل ثمَّ باعه السُّلطان للبذور النَّاقلين قرب تلمسان فعظمت بذلك المصلحة فصدر الأمر في العام الثَّاني بقبض الأتوات كيلاً وزناً، فعرف أهل هذه الأرض بأهل الأتوات لأنَّ السُّلطان قبلها منهم في المغرب¹².

وهذه الرواية أصح ولهذا اللفظ مسند في العربيَّة، التَّوت هو الفاكهة والجمع أُتوات، فعرف أهل هذه البلاد بأهل الأتوات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فصار هذا الاسم علماً على هذا القطر الصحراوي من تَبْلُكُوزَة إلى عين صالح¹³.

وهناك من يقول أَنَّ أصل الكلمة أعجمي بربري لا صلة له بالعربيَّة، وممَّن قال به عبد الرحمان السَّعْدِي صاحب كتاب "تاريخ السُّودان"، كما انتصر لهذا الرَّأي الأستاذ حاج أحمد الصديق قائلًا: (فما دام الفرع، وهو القصور التَّواتية قد وضع بربريا، فإنَّ الأصل هو تسمية الإقليم، لا بدَّ أن يكون بربريا كذلك)¹⁴.

وقد ذهب بعض الدَّارسين الفرنسيِّين إلى ربطه بالأصل الإغريقي فزعموا أَنَّ الفرنسيِّين يطلقون على الواحات اسم (وازييس Ouasis)، ووازييس مصطلح إغريقي الأصل، يتركَب من مقطعين الأوَّل: "وا Oa"، وتوصِّل علماء الاشتقاق اللُّغوي إلى أَنَّ "وا" هي تعبيرٌ عن الجمع الذي مفردة توات « Touat » مثل تواتن عبو « Touat'nebdou » ومعناه واحة الماء، وهو يطلق باللفظ والدَّلالة عند الجغرافيين على منطقة الواحات التي تحمل هذا الاسم بالحوض الشرقي لواد السَّاورَة¹⁵.

ولعلَّ أصل التَّسْمِيَةِ من الإفريقية القديمة، إذ هناك أسماء بلدان أخرى بالسُّودان العربيِّ شبيهة باسم (توات) مثل: (تودني) و(تمبكتو) و(تغز)¹⁶.

3.2. الموقع الجغرافي:

يقع إقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية، وتبعد أقرب نقطة منه عن العاصمة، الجزائرية بحوالي 1500 كلم، يحده من الشمال العرق العربي الكبير، وواد مقيدن، ويحده من الجنوب صحراء تانزروفت، وواد فاريت، وجبال صويرا، كما يحده من الشرق العرق الشرقي الكبير المحاذي لواد الماية، ويحده من الغرب واد السّاوره.¹⁷ والإقليم حالياً يقع ضمن امتداد أدرار وتيميمون وعين صالح، فالأولى كانت تعرف باسم منطقة توات، والثانية باسم منطقة القورارة، والثالثة باسم منطقة تيديكلت، وقد أطلق القدماء على المناطق الثلاث مجتمعة اسم (إقليم توات)¹⁸.

وهذا الإقليم يشمل على عدد من الواحات والمدن والقصور تزيد على الثلاثمئة وخمسين واحة متناثرة هنا وهناك على رمال الصحراء أشبه بالأرخبيل في البحار.¹⁹

3.3. وصف توات على لسان بعض المؤرخين:

تحدث عن توات كثير من العلماء، والأدباء والرحالة والمؤرخين، مثل: ابن حوقل، والحسن الوزان، (الأسد الإفريقي)، والأصطرخي المعروف بالكرخي، واليعقوبي، وابن بطوطة (ت 779هـ) وابن خلدون (ت 808)، وأبوسالم العياشي (ت ق 11 هـ)، وعبد الرحمان السّعدي، والرحالة ابن الدّين الأغواطي (ت ق 13 هـ)، بالإضافة إلى الرحالة الألماني جيردهاردرولف «GERHARD RDE»، والمؤرخين الفرنسيين: مارتان «Martin»، وبرنارد «Bernard».²⁰

فقد ذكرها ابن بطّوطة في رحلته المشهورة بقوله: (وقصدت السّفر إلى توات، ورفعت زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد الطّعام بين تكدا وتوات، ودخلنا بودة؛ وهي أكبر قصور توات، وأرضها رمال، وسبخة، وثمرها كثير، ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة، ولا زرع بها ولا سمن، ولا زيت، وأنّ أكثر أكل أهلها التّمّر، والجراد).²¹ وتحدث عنها المؤرخ ابن خلدون، فكثيراً ما يذكر اسم توات على أنّها المقاطعات الواقعة بمحاذاة وادي مسعود، إذا يقول: (وفواكه بلاد السّودان كلّها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكورارينووركلان...)²².

3.4. الأنساب وتشكيل البنية القبلية:

ينقسم سكان توات إلى أربعة أقسام، كما جاء في مخطوط "نسيم النفحات" للشيخ محمد الطاهري، وهم: الشرفاء والعرب، والمرابطون، والموالي، ولغتهم العربية والدّرجة، ودينهم الإسلام، وعقيدتهم الإشعرية، ومذهبهم مالكي وطريقتهم جنيدية، ويغلب على سكان المنطقة سمرة البشرية، وهذا يرجع لأشعة الشمس.²³

3.5. النشاط الثقافي والفكري:

رغم بعد الإقليم عن مراكز العمران والحضارة والثقافة في المغرب والمشرق الإسلامي إلّا أنّ هذا لم يكن حاجزاً أمام أهل توات للمشاركة في الحركة الثقافية في العالم الإسلامي عامّة والعربيّ خاصّة، ويعود ذلك أساساً إلى عدّة عوامل نذكر منها ما يلي:

- 1- بعد المنطقة عن الصّراع السياسي وتميّزها بالهدوء، ممّا جعل المنطقة مركز جذب للعلماء الفارّين من مناطق الصّراع السّياسي.
 - 2- انتشار الزّوايا، ومساهمة شيوخها في تبسيط المعارف العلميّة.
 - 3- مساهمة سكان المنطقة بدعم الطّلبة والمدرّسين بالأوقاف والهيّات.²⁴
 - 4- تمكّن الكثير من طلبة توات من الرّحيل إلى كلّ من تلمسان وفاس وتونس وطرابلس والمشرق طلباً للعلم، وعودتهم إلى إقليمهم بعد أن رسخوا في مختلف العلوم.²⁵
- وممّا يلاحظ عن الحركة الفكرية بالمنطقة ظهور التّوّع الفكريّ، وإن غلب عليها العلوم الشرعيّة خاصّة التفسير والأصول والتّصوّف، ومن أبرز العلماء بالإقليم:

- سيد عبد الكريم البلبالي.
- سيد محمد الحسن البكري.
- سيد أحمد بن يوسف التتلاوي.
- الزّجلّاي.
- الشيخ سيد البكري التمنيطي.
- سيد محمد بن أب المزمري.
- سيد عبد الرّحمان بن سيد سالم البلبالي.
- شيخ سيد عبد الله بن طمطم والحاج أبو القاسم.²⁶

3.6. المخطوط الرحلي بإقليم توات:

إن إقليم توات على ما يتوفّر عليه من إرث حضاريّ، تمتلّه تلك المظاهر الطبيعيّة والمعالم الأثريّة، فإنّه يقوم كذلك على خزائن لا حصر لها استوعبت أصنافاً من المخطوط، ومن أهمّها مخطوطات أدب الرحلة مثلما أسلفنا سابقاً.

والواقع أنّ ما تتضمنه خزائن هذه البقعة من صحرائنا الشاسعة لا يقتصر على أدب الرحلة، وإنّما نجد أيضاً المخطوطات المتعلّقة بالمناقب، والتاريخ والأخبار مثل مخطوط نظم الياقوتة ونسيم النفحات في أخبار توات وأوليائها وصلّاها، إضافة إلى مخطوطات الأشعار التي خلفها الرّعيّل الأوّل والمتقدّم من شعراء المنطقة فضلاً عن تأليف كثيرة في التصوف، مصحوبة بشروح وحواشي تؤكّد ضخامة إنتاج علماء توات في هذا المجال، ومن تلك التّأليف: مخطوط التشوف إلى رجال التصوف للشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم التادلي، وكذلك مخطوط "الجرعة الصّافيّة والنّفحة الكافية" للشيخ مختار الكنتي، دون أن نهمل في هذا المقام ذكر المخطوطات المتّصلة بالعلوم الفقهيّة، وأيضاً المتعلّقة بعلم اللّغة، فمن الصّنف الأوّل نشير إلى مخطوط في الموارد للشيخ محمّد الزيّاني، وآخر في المعاملات لابن جماعة، ومن الصّنف الثّاني نذكر مخطوط منحة الإعراب المسمّى تحفة الأخبار وطرفة الأصحاب لمحمّد بن محمّد عمر الحضرمي، وكذلك مخطوط فتح الودود في شرح المقصور والممدود للشيخ مختار الكنتي.²⁷

وتشير المصادر إلى أنّ الثّروة العلميّة من المخطوطات التي تركها علماء توات تتواجد بالعديد من الخزائن بمنطقة يُقال لها إقليم "تيدكلت" علماً أنّ هذه الخزائن تحتكم عليها عائلات مشهورة داخل الإقليم كعائلة الشيخ عبد الرّحمان بن محمّد، وعائلة عقباوي وعائلة الشيخ بن مالك.

ولقد مرّت المخطوطات بمنطقة توات بعدّة مراحل منها:

- **مرحلة جلب المخطوطات:** وهي تبدأ من القرن العاشر إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وقد لعبت القوافل التجاريّة والرّحلات دوراً بارزاً في جلب أعداد هائلة من المخطوطات.

- **مرحلة النّسخ:** وتبدأ من القرن الثالث عشر، وتستمرّ إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي حيث سخرت المراكز في عمليّة النّسخ، علماً أنّ عمليّة جلب المخطوط لم تتوقّف خلال هذه المرحلة.

- **مرحلة التّأليف:** وتبدأ من منتصف القرن الخامس عشر وتستمرّ إلى القرن التاسع عشر، حيث اتّسعت المخطوطات وعمّت مختلف المناطق كما شملت العديد من العلوم بما في ذلك المناظرات والمحاورات، ممّا يعكس درجة التّحكّم المعرفي التي كان عليها علماء توات.²⁸

والمطلّع على خزائن المخطوطات بتوات، يجد حضور فنّ التّاريخ والرّحلة، ومن أشهر المخطوطات التّاريخية "القول البسيط في أخبار تمنّيط" لمحمّد الطيّب بن عبد الرحيم.²⁹ أمّا مخطوطات أدب الرحلة فإنّها تنفرّع إلى ثلاثة أقسام تتمثّل في:

أ. مخطوطات رحليّة داخل إقليم توات.

ب. مخطوطات رحليّة خارج إقليم توات.

ت. مخطوطات رحليّة خارج الوطن.

وقبل الحديث عن الرّحلات داخل إقليم توات باعتبارها العنصر المهم والأساسي في بحثنا؛ لأنّ أصحابها تعرّضوا بالوصف للإقليم وأهله، نشير إلى أنّ رحالة إقليم توات جابوا بعض المناطق داخل الوطن كالجزائر العاصمة والهقار ومثيلي وبني عباس، كما تنقلوا خارج الوطن فزاروا دولا كثيرة كمالي والمغرب الأقصى.

وفيما يتّصل بالرّحلات داخل إقليم توات، فإنّ معظمها كانت من أجل طلب العلم أو نشره، والبداية تمثّلها رحلة سيدي عبد الرحمان بن عمر التتلاوي الذي تنقّل عبر زوايا الإقليم طلباً للعلم فزار زاوية كنتة وزاوية تينلان، ولقي شيوخ العلم بهما.³⁰

كما نجد رحلة ضيف الله بن آب الذي تجول داخل الإقليم فذكر قصوره وزواياه، كقصر أوقروت وزاوية مطرون وزاوية تاقرافت كما وصف ألوان الطّعام المشهورة في هذا الإقليم.³¹

أمّا رحلة عبد الله أحمد بن هاشم العموري فإنّها كانت باتجاه منطقة المستور وقد قصدتها الرّحالة من أجل معرفة الأنساب، وأثناء تجواله وصف هو الآخر بعض القصور كقصر تاسفاوت والقصر الجديد وقصر تامسخت وقصر المناصير.³²

ومن الرّحلات كذلك داخل إقليم توات، نجد رحلة الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الذي قصد الإقليم من أجل الدّعوة والإصلاح ونشر العلم وقد أعجب به كثيرا فقال عنه "توات تلك الأراضي الطّاهرة الطّيبة المملوءة بالصّالحين والأولياء، وجدت بها ضالّتي المنشودة فكسرت بها عصا التّرحال في أحسن حال وأنعم بال".³³

❖ نموذج عن مخطوط رحلي بمنطقة توات:

ومن المصنّفات القيّمة التي تدرج في المخطوطات الرّحليّة بهذا الإقليم نجد "الرحلة العليّة إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات" للشيخ محمّد باي بلعالم؛ جمع فيه صاحبه 1084 صفحة ضمّت 752 بحثا. ويعطي هذا المؤلّف صورة شاملة لمنطقة توات بمقاطعاتها الثّلاث؛ لما يوحى به عنوانه من ذكر مفصل لعلماء المنطقة ومشايخها وما خلفوه من آثار علميّة، مع الإتيان بأسماء المدن والقرى وأحوالها؛ ممّا يجعله مصدرا مهمّا في باب المخطوطات.

وتتجلّى قيمته في بيان أهمّ مميّزات المنطقة في مختلف مجالات الحياة، "وتظهر أهمّيّته التّاريخيّة والوثائيّة في المراسلات والإجازات والقصائد التي اشتمل عليها، وعلى ما اشتمل عليه من مناهج تدريس العلوم الشرعيّة، وكذا تراجم الأعلام، وعرض بعض المسائل الفقهيّة".³⁴

ولقد حرص صاحب المخطوط على إبراز أهمّ الجوانب العلميّة من تاريخ منطقة توات غير ملتزم بترتيب معيّن، مثلما عبّر عن ذلك في مقدّمته قائلا: "إنّني غير ملتزم بالترتيب ولا بالتقديم والتأخير بل كلّما حصلت على معلومة ألحقته غير مبال بأنّه يحقّ له أن يتقدّم أو يتأخّر من هذا المنطلق فإنّ هذه الرّحلة مفتوحة للقارئ لا يغلق عليه باب ولا يفصله عنها فصل ولا يحده مجلس، فهو جمع للمعلومات وتدوينها لا ترتيبها وتنظيمها".³⁵

وفي ملاحظة أخرى جديرة بالذكر تتعلّق بطريقة عرضه للرّحلة أنّه جمع بعض العينات من هذه الرّحلة وجعلها نظما لإعطاء صورة مصغّرة لما فيها من وقائع وبحوث، وهذه أبيات من مطلع القصيدة التي بلغت 78 بيتا:³⁶

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ صَلَّى ❖ عَلَى النَّبِيِّ سُبْحَانَ رَبِّيَ جَلًّا
وَبَعْدَ حَمْدِ رَبِّ وَالصَّلَاةُ ❖ عَلَى النَّبِيِّ سَيِّدِ السَّادَاتِ
يَا أَيُّهَا الْبَاحِثُ فِي تَوَاتُ ❖ وَمَا تَصَمَّنْتُهُ مِنْ عَادَاتِ
وَمِنْ زَوَايَا وَقُصُورٍ وَنَبَاتٍ ❖ وَمِنْ شُيُوخٍ بِالْعُلُومِ وَصِفَتْ.

كما استطاع صاحب الرّحلة أن يقدّم تراجم لعدّة شخصيّات تواتيّة ساهمت في الحياة الأدبيّة والعلميّة، من قبيل: ابن أب المزمري، وعبد الرحمن الجنتوري، والعائلة البكريّة، عارضا لحياتهم العلميّة وما سجّله قرائحهم من قصائد مختلفة في مدح الرّسول صلى الله عليه وسلّم، أو في أغراض أخرى.

4. الاستنتاج:

المخطوط إرث علميّ وحضاريّ غاية في الأهميّة، ولذلك نجد أنّ الحضارات العريقة تولي له عناية كبيرة بحفظه في خزائن خاصّة يشرف عليها متخصصون لهم دراية بكيفيّة حفظها والتعامل معها.

والجزائر تزخر بعدد من المخطوطات القديمة، لاسيما في جنوبها وتحديدًا بإقليم توات، الذي يجمع مخطوطات متنوعة المعارف والعلوم، تأتي في طليعتها مخطوطات أدب الرّحلة، الذي حظي بعناية الرحالة من داخل الإقليم وخارجة؛ فحملت لنا تراثا أصيلا يعكس ثقافة أهل المنطقة وعراقتها.

5. الخاتمة:

وبعد هذا الإطالة على إقليم توات يتّضح لنا:

- 1- إقليم توات منطقة فسيحة الأرجاء تمثل معلماً تراثياً داخل صحرائنا الواسعة.
- 2- يتضمّن الإقليم العديد من المعالم الأثرية المادية منها وغير المادية.
- 3- شكّل إقليم توات مهوى أفئدة الرّحالة من العلماء والأدباء والمؤرخين قديماً وحديثاً.
- 4- يقوم إقليم توات على مجموعة من القصور والزوايا التي تتضمّن إراثاً هائلاً من المخطوطات العلميّة، وكذلك المتّصلة بأدب الرحلة؛ ممّا يعني أنّ سكّان الإقليم كانوا على جانب كبير من المستوى العلميّ والثّقافيّ.
- 5- تتضمّن مخطوطات أدب الرحلة وصفاً لإقليم توات بما فيه من قصور وزوايا كما تصوّر عادات وتقاليد ساكنيه.

6- الهوامش:

1. ينظر: رجال لهم تاريخ متبوع بنساء لهنّ تاريخ، داودة نبيل وآخرون، دار المعرفة، د ط، د ت، ص: 385.
2. أساس البلاغة، الزمخشري، تح محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة، ط1، 1998م، ج1، ص: 256.
3. تاج العروس من جواهر القاموس، الزّبيدي، دار الكتاب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2007م، ج10، ص 135.
4. الفهرست، ابن النديم، ص: 272.
5. ينظر: المخطوطات الإسلاميّة، وزارة الثّقافة، د ط، 2011، ص: 20.
6. ينظر: المصدر نفسه ص: 22.
7. مخطوطات جزائرية في مكتبات اسطنبول، جمع وترتيب محمّد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، د ط، د ت، ص: 13-19-152.
8. ينظر: توات والأزواد، محمّد صالح حوتية، دار الكتاب العربي، 2007، ج1، ص: 300.
9. ينظر: المصدر نفسه ص: 309.

10. ينظر: في الأدب الجزائري الحديث، عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1995، ص: 97.
11. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1979، ص: 13.
12. ينظر: المصدر نفسه ، ص: 37-38.
13. ينظر: المصدر نفسه ص: 38.
14. التاريخ الثقافي لإقليم توات، مديرية الثقافة لولاية أدرار، ط1، 2003م، ص: 29.
15. ينظر: توات والأزواد، محمد صالح حوتية، ص 37.
16. ينظر: الرحلات بإقليم توات، عبد الله كروم، ص: 22.
17. ينظر: الرحلات بإقليم توات، عبد الله كروم، ص: 23.
18. إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 2007، ص: 13.
19. ينظر: المصدر نفسه ص: 13.
20. الرحلات بإقليم توات، عبد الله كروم، ص: 28/27.
21. رحلة ابن بطوطة، ابن بطوطة، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ص406.
22. المقدمة، ابن خلدون، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 2007م، ص: 73.
23. توات والأزواد، محمد صالح حوتية، ص: 57.
24. ينظر: توات والأزواد، محمد صالح حوتية، ص: 275.
25. ينظر: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فرج محمود فرج، ص: 24.
26. ينظر: قطف الزهورات من أخبار علماء توات، عبد العزيز سيدي عمر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.
27. ينظر: توات والأزواد، محمد صالح حوتية، ص: 302-304.
28. ينظر: المصدر نفسه ص: 310.
29. ينظر: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فرج محمود فرج، ص: 34.
30. ينظر: الرحلات بإقليم توات، عبد الله كروم، ص: 81.
31. ينظر: المصدر نفسه ص: 85.
32. ينظر: المصدر نفسه ص: 88.
33. المصدر نفسه ص: 93.

34. الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، الشيخ محمد باي بعالم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2005م، ص23.

35. المصدر نفسه، ص7.

36. المصدر نفسه، ص8.

قائمة المراجع:

1. إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 2007.
2. أساس البلاغة، الزمخشري، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م، ج1.
3. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط2007م، ج1، 10.
4. التاريخ الثقافي لإقليم توات، مديرية الثقافة لولاية أدرار، ط1، 2003م.
5. توات والأزواد، محمد صالح حوتية، دار الكتاب العربي، 2007، ج1.
6. رجال لهم تاريخ متبوع بنساء لهم تاريخ، داودة نبيل وآخرون، دار المعرفة، دط، دت. 385.
7. الفهرست، ابن النديم.
8. الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، الشيخ محمد باي بعالم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2005م.
9. في الأدب الجزائري الحديث، عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1995.
10. المخطوطات الإسلامية، وزارة الثقافة، دط، 2011.
11. مخطوطات جزائرية في مكتبات اسطنبول، جمع وترتيب محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، دط، دت.
12. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1979.